وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
المرحلة الثالثة
المادة: فلسفة التاريخ

مفهوم فلسفة التاريخ عند ابن خلدون

أ. د. مثنى عباس عواد

مفهوم فلسفة التاريخ عند ابن خلدون:

فقد توجهت بقراءاتي هذه إلى أحد أعلام تراث الفكر الإسلامي وهو العلامة ابن خلدون الذي استطاع أن يترك بصمات واضحة في مجال فلسفة التاريخ ليس على الفكر العربي الإسلامي وحده بل على العالم الغربي أيضاً، وليس في كل هذا مبالغة أو حماس، إنما الحقيقة الساطعة أن ابن خلدون هو منشئ علم التاريخ القائم على فلسفة معينة تضبطه قوانين عامة، إذ كان يعرف علم التاريخ بقوله: "التاريخ: ولد حيثما ولد الإنسان وازدادت قيمته والاهتمام به عندما صار الإنسان يعيش مع أمثاله في مجتمع متحد الغاية والهدف"، ويقول ابن خلدون: "أن الإنسان هو الذي يضع التاريخ إذن التاريخ علم قائم بذاته له أساليبه الخاصة في البحث وعنده يجل التاريخ دراسة فلسفة متمايزة من الدراسة التجريبية ذلك إن وصف التاريخ وصفاً لوقائع وهو إدراك للأسباب التي من أجلها حدثت هذه الوقائع"، وكذلك عرف التاريخ بأنه العلم الذي يبحث في الحياة التي تحياها الوحدات البشرية أي المجتمعات، وفي العلاقات القائمة بينها.

والفلسفة التاريخية وجهة نظر تلتزم عرض المفاهيم العلمية من حيث تطورها عبر التاريخ وأن الحوادث الاجتماعية تعتمد في وقوعها على موقف تاريخي معين، ومن هذا الوجه تتصف القوانين الاجتماعية بالنسبية التاريخية.

ونجد أن كلمة مفهوم فلسفة التاريخ متضمن جملة الصفات التي تكفي لتعريف اللفظ مضافاً إليها المعاني التي تلزم عنها لزوماً منطقياً.

ويرى ابن خلدون: أن البحث في هذا الفرع يتجه إلى كشف العوامل المؤثرة في صنع التاريخ للوقوف على طبيعة التاريخ في بعديه الماضي والمستقبلي، وهذه العوامل قوى كافية في المجتمع وفي ظرفيه المكاني والزماني، بمعنى وصول المؤرخ إلى فهم أدق للتاريخ عن طريق التسلم بوعي وخبرة أعمق والوصول إلى الأسباب الحقيقية وراء الأحداث ومعرفة الكيفية التي وقع بها الحدث عن طريق العقل والأفكار المنظمة.

وفلسفة التاريخ عند ابن خلدون هو علم بكيفيات الوقائع وأسبابها، ونلاحظ أن الفلسفة هنا تسعى إلى فهم ما ينظم هذا المضمون ويعطيه دلالته، ويجعله موضوع اعتبار وعبرة في حياة الشعوب، وهو سعي يختلف عن سعي الفلاسفة الآخرين، والفلسفة هنا تعني محبة الحكمة بمعنى أن المؤرخ لابد أن يكون حكيماً في تنظيم الحوادث التاريخية.

إن اتجاه ابن خلدون إلى دراسة التراكم التاريخي للمعرفة (مضمون التاريخ) وهو الاتجاه السلبي لإرساء أساس فلسفة التاريخ، لأن التاريخ اكتسب من شروط العلم ما يكفي ليجعله لدقته من علوم الحكمة، إذن المعرفة التاريخية تقررها مسألتان جوهريتان هما:

١- استيعاب العلية ودقة الطريقة التاريخية المتبعة في كشفها.

٢- التحقق والفهم الدقيق للتاريخ فيتم تشكيل بناء المعرفة التاريخية، ويتكون الوعي وتتحقق الخبرة وتتم فائدة الاقتداء.

المقارنة بين التاريخ وفلسفة التاريخ عند ابن خلدون:

بعد أن عرف لنا ابن خلدون مفهوم فلسفة التاريخ يستخدم المنهج المقارن للمقارنة بين التاريخ وفلسفة التاريخ عند ابن خلدون، فمن الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن ابن خلدون يفرق بين التاريخ وفلسفة التاريخ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على الدقة في استخدام الألفاظ والمصطلحات التاريخية، وهذه المقارنة تشمل ما يأتي:

أ- ابن خلدون وعلمنه التاريخ.

ب- ابن خلدون والتفسير الحركي للتاريخ.

لا شك أن دراستنا لهذا المفكر سوف ننتظر فيه الكثير ونلاحظ أن النتائج الأولى للنظرية التجريبية كانت إحساسه بضرورة تطهير التاريخ من الخرافات والأساطير التي لا تتفق وحقيقة الحوادث المشاهدة، فإننا في الواقع نقف بإزاء واقعات تاريخية لها قوانين تحكم مسيرتها لأن أمور التاريخ عند ابن خلدون لا تسير اعتباطاً، ووراء هذا التراكم الهائل نستخلص النظام.

ويقول ابن خلدون أن التاريخ فن رواية وهو السمة الظاهرة له فقط، أما حقيقة التاريخ فإنه علم بكيفيات الوقائع وأسبابها، ونظر وتحقيق وتعديل هذه التفرقة بين التاريخ كعلم وبين التاريخ كتفسير لحركة العمران هي أول نتائج الاتجاه التجريبي عند ابن خلدون، ومن خلال دراساته العميقة للمؤلفات التاريخية أن أدرك التفرقة بين التاريخ كعلم والتاريخ كتفسير عقلاني، فأراد أن يضع المنهج العاصم من وقوع المؤرخين في مهواة الخطأ فكانت الأسس الأولى للتاريخ كعلم، وحركة التاريخ تتبع في مسيرتها قانوناً معيناً، وهذا القانون العام لهذا التطور التاريخي مرتبط بالأحداث التاريخية وبعد ذلك يفسر علمنة التاريخ.

ابن خلدون وعلمنه التاريخ:

إن شهرة ابن خلدون في دوائر المعارف العالمية تبدو أنه رائد لفلسفة التاريخ، فقد قدمته دائرة المعارف البريطانية على أنه مؤرخ عربي وعالم اجتماع أشتهر كرائد لفلسفة التاريخ، وهو الثمرة الناضجة لمنهجه التجريبي وتحليله الفلسفي للتاريخ أو حركة المجتمع مرتبط بمنطقة شمال أفريقيا وعلم العمران البشري.

إن الدراسات التي تقرر أن العلامة العربي تفوق على نفسه في مجال فلسفة التاريخ فهو ليس مؤرخاً عادياً لتاريخ العرب كما تفوق على الغرب (مثل فيكو – منتسكيو – هيجل – ماركس)، وكثير من النظريات الفلسفية الحديثة، فكانت المقارنات تنتهي إلى أن ابن خلدون قد سبق هؤلاء في وضع الأساس الفلسفي للتاريخ، ويظهر ذلك من خلال تأثر العلماء الأوروبيين به، ومن يتصفح الكتاب الثاني في مؤلفه (العبر) بعد دراسة المقدمة والكتاب الأول وفهم منهجه في البحث، تبهره الدقة العلمية في سرد الأحداث والأخبار ووضع الأنساب على شكل شجرة ظاهرة للعيان في صفحة واحدة.

ونلاحظ أن ابن خلدون في عرضه للأشياء وفي تحليله يهتم بالجانب الواقعي منها وما يتفق وطبائع البشر والحوادث من خلال النظم التاريخية التي وضعها لنا ابن خلدون لكي يفرق بين التاريخ وفلسفة التاريخ وكذلك شرحه لعلمنة التاريخ، وأيضاً يستخدم المنهج النقدي بكل تفحيص وتمحيص لفن رواية التاريخ.

كذلك نلاحظ أن العلامة العربي ابن خلدون لا يرضى أن يكون مجرد ناقل للأخبار فقط، ولكنه يدقق في اختبار الخبر لأن التاريخ كعلم له أصول ومناهج بحثه الخاصة به وقوانينه الصارمة التي لا تتبدل ولا تتغير، ومعرفة هذه القوانين هي أساس المؤرخ، وينبه ابن خلدون على الجانب السلبي والايجابي لفن رواية التاريخ فيقول: هناك جانب سلبي: في منهجه والذي يحذر فيه من الثقة بالناقلين أو التشيع للآراء السابقة والمذاهب.. أما الجانب الايجابي: من منهجه ويجعل له الأهمية المطلقة على كل ما سبق من قواعد وإرشادات وتحري الصدق من الكذب في الأخبار التاريخية وأن تكون هذه الأخبار مطابقة للواقع المشاهد.

القوانين عند ابن خلدون في دراسته لفلسفة التاريخ:

شهد ابن خلدون حقبة من حقب الانهيار التاريخي في منطقة ما من العالم، هذه الإحداث التاريخية أثرت في دراسته لفلسفة التاريخ، وكان شاهد عصر دراسته عن وعي وخبره وسبق دارون في وضع نظريته والدليل على ذلك: حيث يقول دارون: أن أهم القوانين في العالم الاجتماعي هي قوانين الحركة والتطور التي تتبع الوجه السياسي، والتي تشبه قوانين الكائنات الحية في العلم الطبيعي، وهي تتطور من الصغر إلى النمو إلى الكبر إلى الهرم.

أدرك ابن خلدون أن التناقض أساس حركة الكون كما فعل "هيجل" حينما تصور الكون على أساس "كل عضوي" حتى يشيع فيه التناقض.

التعاقب الدوري لحركة التاريخ: حركة التاريخ تسير في أربع حلقات متتابعة وهي (البداوة – الملك – الحضارة – الانهيار)، وفلسفة التاريخ في تطور المجتمع البشري تقوم على فكرة التقدم المطلق للحياة البشرية، وأن ابن خلدون يعد فيلسوفاً للتاريخ الإسلامي.

وفضل ابن خلدون ينحصر في أنه أشار إلى أن التاريخ له فلسفة تستخلص من تحليل حركة التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

ويشير ابن خلدون إلى أهمية المنهج النقدي في دراسة فلسفة التاريخ حيث يقول: الفحص النقدي الدقيق لمنهج المؤرخ يدخل في مجال النشاط التحليلي للفلسفة، ويحتوي على أفكار رئيسية وهي ما يأتي:

١- طبيعة الفكر.

٢- قوانين المنطق والاتساق والبعد عن السند والعنعنة دون بحث أو تنقيب.

٣- العلاقات بين أفكارنا والواقع.

٤- طبيعة الحقيقة.

٥- مدى صلاحية المنهج توصل إلى الحقيقة والمعرفة.

لذلك تقوم فلسفة التاريخ بدور الناقد الأعلى، إذ أنها تقوم باختبار دقيق للدراسات التاريخية للظواهر الاجتماعية لاستنباط الأحداث التاريخية الصحيحة.

المنهج المستخدم عند ابن خلدون في دراسة فلسفة التاريخ:

يستخدم ابن خلدون المنهج الاستقرائي في فلسفة التاريخ لأهميته في اكتشاف الحقائق ولأن للأسباب الآتية:

١- المنطق عند العرب يقع في المقام الأول، فهو المدخل إلى الفلسفة وعلم الكلام ويطلق أحياناً (معيار العلوم) وللغزالي كتاب في المنطق يحمل هذا الاسم.

٢- العلاقة وطيدة بين المنهج الاستقرائي وفلسفة التاريخ، لأن المنهج الاستقرائي يبدأ من الجزيئات والتاريخ يبدأ من دراسة الإنسان الذي هو جزء من المجتمع الإنساني، لذلك نقول بأنه سبق هيجل وداورل في استخدام المنهج الاستقرائي، ويقول ابن خلدون: فالمحصلة التي نراها في التاريخ – الأخبار – هي بينت الصلة بين الحركة العامة والعوامل الخاصة الظرفية.

٣- المنهج الاستقرائي فن من فنون المعرفة: لأنه يحوي أخباراً عن الزمن الماضي غير أن هذه الأخبار ليست كل شيء في التاريخ، وإنما هي الصورة التي تبدو لنا هي محصلة فعلها الفرد.

٤- المنهج التجريبي: يقول ابن خلدون تحدث الأحداث (الوقائع التاريخية)، ويتبع المؤرخ التجربة واستنباط الحقائق التاريخية عن طريق الظواهر الحية، ومن مميزات المنهج الاستقرائي التجريبي عند ابن خلدون يحاول استخراج القوانين العامة من ملاحظة الظواهر الحية وموضوع علم التاريخ معرفة الحقائق التي يستطيع الآن الإنسان أن يحصلها بعقله الطبيعي دون معونة خارجية.

٥- المنهج الاستنتاجي: مرتبط بالعقلانية بين الزمان والمكان بمعنى أنه يستخدم عقله وفكره في تنظيم الأفكار التاريخية عن طريق الطبيعة والنظام، والطبيعة ذو نظام، والآن من يتجه إلى ذلك عن طريق الفكر، إذن يحتاج صاحب هذا الفن (فلسفة التاريخ) إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأمصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل.

٦- المنهج النقدي: نقد التاريخ لأن تاريخ الحضارة يشمل (الثقافة – التغير الاقتصادي – الاجتماعي – الوقائع – الحروب)، والمنهج النقدي يشمل البحث عن القوانين المحيطة بالظواهر الاجتماعية، لأن فلسفة التاريخ صارت في الدراسات الحديثة مصطلحاً يشير إلى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ ودراسة مناهج البحث في هذا العلم في وجهة النظر الفلسفية.